إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة السابعة ـ العدد السابع والعشرون ـ خريف ١٣٩٦ش/ أيلول ٢٠١٧م
صص ٩٨ ـ ٧١

ملامح الاغتراب فی شعر "علی فودة" وردود فعله علیها

فاطمه جمشیدی (الکاتبة المسؤولة)*
وصال میمندی**
فاطمة قادری***
رضا أفخمی عقدا****

الملخّص

الاغتراب هو وعی الفرد بالصراع القائم بین ذاته وبین البیئة المحیطة به بصورة تتجسّد فی الشعور بعدم الانتماء والسخط والقلق والعدوانیة وما یصاحب ذلک من سلوک إیجابی أو شعور بفقدان المعنی واللامبالاة والانعزال الاجتماعی وما یصاحبه من أعراض إکلینیکیة، وهو ظاهرةٌ بارزةٌ فی العصر الحدیث، فالأدب فی مثل هذه الظروف ینعدم فیه الاستقرار والهدوء، فمن هنا غلبت فکرة الاغتراب فی الوقت الحاضر علی تجربة الشعراء. هدفَت هذه المقالةُ دراسةَ أنواع الاغتراب فی شعر "علی فودة" الشاعر الفلسطینی المعاصر (١٩٤٦-١٩٨٢م) والسبب فی اختیار هذا الشاعر یعود إلی أن هذا الشاعر لا یعرفه الطلّاب والباحثون کما یستحقّه، فدراسة شعره من خلال الفحص عن أقسام الاغتراب فی حیاته یسدل الستار عن کثیر من الزوایا الخفیة فی شخصیته. کذلک قَصدَت المقالة الکشفَ عن توظیفه بعضَ الآلیّات التعویضیة إزالةً لهذا الشعور وکلّ هذا عبر المنهج الکیفی الذی یعتمد علی الوصف والتحلیل. إضافة إلی هذا، دَرَسَت ردّةَ فعل الشاعر وتعامُلَه تجاه اغترابه، ووصَلَت إلی أنّ اغتراب هذا الشّاعر ظَهَرَ متمثّلاً فی الاغتراب الاجتماعی، والسیاسی، والنفسی، والإخوانی، والزمانی، والمکانی. وظّف هذا الشاعرُ آلیات لدفع اغترابا ته کتکرار الألفاظ الدّالة عن الاغتراب واستخدام أسلوب الحوار فی اللجوء إلی الطبیعة والاستئناس بها وخطاب أمّه المیّتة عند الحنین إلی الطفولة، وأیضاً الخشوع تارة والسّخط تارة أخری.

الکلمات الدلیلیة: علی فودة، الاغتراب، الغربة، ردة فعل الشعراء.

*. طالبة مرحلة الدکتوراه فی اللغة العربیة وآدابها بجامعة یزد، مدینة یزد، إیران
f.jamshidi@stu.yazd.ac.ir
**. أستاذ مشارک فی اللغة العربیة وآدابها بجامعة یزد، مدینة یزد، إیران
Vmeymandi@yazd.ac.ir
***. أستاذة مشارکة فی اللغة العربیة وآدابها بجامعة یزد، مدینة یزد، إیران
ghaderi_m@yazd.ac.ir
****. أستاذ مشارک فی اللغة العربیة وآدابها بجامعة یزد، مدینة یزد، إیران
afkhami@yazd.ac.ir

تاریخ الاستلام: ١٣٩٦/٣/١٠ش تاریخ القبول: ١٣٩٦/٧/٢٩ش

المقدمة

الاغـتراب «نوعٌ من الاضطراب فی علاقة الفرد بنفسـه والعالم، حيث يشـعر المرء بأنّه غريبٌ عن ذاته منفصلٌ عن واقعه بسـبب فقدان المعنى المتمثّل بصورة أساسـية فی الهدف.» (يوسف، ٢٠٠٥م: ١٤ – ١٥) وملخّص القول أنّ الاغتراب هو ما يعانيه الفرد من الانفصال عن وجوده الإنسـانی وعن مجتمعه وأفعاله التی تصدر عنه، فيفقد سيطرته عليها فلا يشعر بأنّه مركز لعالمه ومتحكّم فی تصرّفاته. فهو من «العوامل المهمّة المسؤولة عن أزمة الإنسـان فی العصر الحديث حيث يصبح منفصلـاً عن مجتمعه الذی يعيش فی إطاره وحتّی يغترب عن نفسه وأفعاله.» (خليفة، ٢٠٠٣م: ١٠٣) هناک للاغتراب وجوه عديدة؛ «فمنها الاغتراب عن الوطن إلى جهات بعيدة ونائية ومنها الاغتراب النفسـی وذلک حين يشعر المرء بأنّه يعيش غريباً بين أبناء مجتمعه ومنها أيضاً اغتراب المرء عن نفسه، وذلک حينما تنفصل عرى الوثائق بين الإنسان ونفسه، وكذلک الاغتراب الذی يفارق فيه الإنسـان أهلـه وأصدقاءه ويرحل إلى مجتمعات أخـرى تنعدم فيها صلات القربى ويتوجّه إلى مجتمع آخر ويكوّن فيه أصدقاء جُدد ليعوّضوه عن أهله.» (ياسـين، ١٩٩٢م: ٩)

المدخل

ظهر الاغتراب كموضوع أساسی فی كثير من الأعمال الأدبية والفنية، فعُرِفَت كظاهرة ملازمة للإنسان فی جميع العصور والمجتمعات وتمتاز بالغموض والتشتّت والإبهام وذلک بسبب استخداماتها المتعدّدة التی تشمل جلَّ نواحی الحياة النفسية والذاتية والاجتماعية والدينية والسياسـية والزمانية والمكانية وحتّی النواحی اللغوية؛ بسـبب تعدد مصادر الفلاسفة والمفكّرين الذين قدّم كل منهم مفهومه لهذا المصطلح بناء علي فلسفته وأفكاره الخاصة ضمن مجال بحثه وتوجهاته الفلسـفية. وأمّا بالنسبة للشعراء «فالاغتراب يعود إلى عوامل ذاتية وموضوعيّة ومسـائل روحيـة ومادية متداخلة كما أنّ قهر الاغتراب يرتبط أيضاً بسلسـلة من العوامل الذاتية والاجتماعية والثقافية.» (جاسـم، لاتا: ١٠) قبل التطرّق إلى البحث يجب الإشـارة إلى الفرق بـين الغربة والاغتراب؛ فالغربة هی

«انتقـال المرء من مكان إقامته من بـين أهله وجيرانه وأصدقائه وذكرياته وموطنه إلى موطـن آخر يُعيد فيه ترتيب أوضاعه فيكوّن صداقات جديدة وجيران جدد وذكريات جديدة وموطناً جديداً. والغربة رغم ما فيها من مساوئ وسلبيات لكنّها مفيده وإيجابيه فی أغلب الأحيان، ففی الغربة تجدّد وتجديد، فالغربة تصقل الشخصية وهی طريقٌ للتفوق والتقدم والنهوض. أمّا الاغتراب فهو شعور الفرد بأنّه مرفوض من مجتمعه وناسه أی إنّه شـعورٌ بعدم التجانس وعدم التقارب، ففی حالة الاغتراب يتولد عند الفرد الإحساس بكره المجتمع له وباحتقاره وفی الاغتراب يفقد الإنسان القيم والمثل الإنسانية والخضوع لواقع اجتماعی يتحكّم بالإنسـان ويستعبده، وحينئذٍ يشـعر بالانفصال والانعزال عن الآخريـن، وحتّی العالم ذاته..» (نـوری، ١٩٨٣م: ٥٥) وملخّص القـول هو أنّ الغربة تختـصّ بالبعد المـكانی أی بالابتعاد عن الوطن ولكنّ الاغتراب قد تحدث فی البعد عن الوطن وقد يصيب به الإنسـان فی الوطن فيمكن للإنسـان أن يشعر بالاغتراب مع أنّه يعيـش فی وطنه بين أهله وأصدقائه؛ والفرق الآخر بين الغربة والاغتراب هو أنّ الغربة ظاهرة إيجابية تؤدّی إلى الازدهار والتعالی مع أنّ الاغتراب حالة مرضيه يعيشها الفرد ويعانی منها.

منهج البحث وأسئلته

اعتمـد هـذا البحث على المنهج الوصفـی التحليلی، وهذا عبر قـراءة ديوان على فـودة[١]؛ حيث تنـاول الباحثون الاغترابَ لغةً واصطلاحاً، مع وقفة سـريعة على حياة هذا الشـاعر، ثمّ قاموا بدراسـة قصائده واختيار الأبيـات الدالّة على الاغتراب لديه

١. ولد "علی يوسـف أحمد فودة" فی قريته الفلسـطينية "قنّير" من "قضاء" حيفا سـنة ١٩٤٦م وحلّت بـه النكبـة المزلزلة من مولده فانتزع طفلـاً ورمت به إلى الاغتراب لم يُفِق من الإحسـاس بها حتّی استشهاده فی سنّ السادسة والثلاثين وقد ترافقت النكبة مع فقدانه لأمّه التی سيظلّ لها حضورٌ عطرٌ فی شـعره، وقد لجأ مع أسرته إلى القسم الشرقی من فلسطين ممّا عرف باسم "الضفة الغربية" وأصبح يتبع الإدارة الأردنية قبل حدوث نكسـة ١٩٦٧م واحتلال الضفة واستشـهد هذا الشاعر المصاب بمشاعر الوحدة والاغتراب سنة ١٩٨٢م وصدر له خمس مجموعات شعرية بين عامی (١٩٦٩ – ١٩٨٢م) وهی المجموعات التالية وفق ترتيب صدورها "فلسـطينی كحدّ السـيف"، "قصائد من عيون امرأة"، "عواء الذئب"،"الغجری"، "منشورات سرّية للعُشب". (خليل، ٢٠٠٥م: ٧٦ – ٨٢)

وتصنيفها حسب أقسام الاغتراب والإتيان بنماذج لكلّ منها ثمّ تحليلها. هَدفَ البحثُ إلى إلقاء الضوء على أنواع الاغتراب فى شعر على فودة بغيةَ الإجابة عن الأسئلة التالية: ١) ما هى أنواع الاغتراب فى شعر على فودة؟ ٢) ما هى التقنيات الفنيّة التى وُظّفت لبيان اغتراب هذا الشاعر؟ ٣) كيف واجَهَ على فودة اغترابَاته؟

الدراسات السّابقة

إنّ الدراسات التى تناولت حياة على فودة وشعره قليلة جدّاً منها مقالة "كرامت نفس در آينه شعر على فوده شاعر مقاومت فلسطين" لـ "فضل الله ميرقادرى" و"حسين كيانى" (١٣٨٩ش) التى فحص الكاتبان فيها عن مكارم النفس فى شعر فودة كالصّبر، والصّدق، والشّجاعة من خلال وصفه لأعمال بعض الشخصيّات القديمة مثل "بلال الحبشى" و"عروة بن الورد". ومقالة "المقاومة فى شعر على فودة" التى كتبها "عماد عبدالوهّاب الضمور" (٢٠١٢م) وأيضاً رسالة لنيل درجة الماجستير بعنوان "ملامح أدب المقاومة فى شعر على فودة" لـ "مرضية زيبنده" (١٣٩٣ش) حيث أشار الكاتبان فيهما إلى اهتمام فودة بقضايا مرتبطة بالمقاومة منها التأكيد على الهوية الفلسطينية والدعوة إلى المقاومة والحرية لحثّ المواطنين على الدفاع عن وطنهم السليب واستنتجا إلى أنّه يمكن عدّ على فودة شاعرَ المقاومة الفلسطينية بسبب اهتمامه الوافر إلى قضايا وطنه. ولكنّ الاغتراب نفسَه مبحثٌ واسع تناولَته دراسات عديدة أهمّها "ملامح الاغتراب فى شعر أحمد صافى النجفى" لـ "عدنان أشكورى"، و"الاغتراب فى شعر جميل صدقى الزهاوى وناصر خسرو القبادیانى" لـ "عبّاس يداللهى" و"سردار أصلانى"، و"تجليّات الغربة وظواهرها فى أشعار عدنان الصائغ ديوانا تأبّط منفى وتكوينات نموذجاً" لـ "على خضرى" و"رسول بلاوى" و"آمنه آبگون"، ومقالة "الاغتراب ومظاهره فى شعر سيّد قطب" لـ "فاروق نعمتى" و"جهانگير أميرى" و"على سليمى" و"عبدالسلام كريمى"، وأيضاً "الاغتراب عند نازک الملائكة" لـ "مهدى ممتحن" و"حسين شمس آبادى" التى كانت كلّها حول ملامح الاغتراب فى أشعار الشعراء دون دراسة ردود فعلهم تجاه الاغتراب. فكما نرى لم يتطرّق أى باحثٍ إلى ملامح الاغتراب فى شعر "على فودة"

وهذا ما يميّز هذه المقالة عن البحوث المذكورة.

الاغتراب لغةً واصطلاحاً

جاء فی "لسان العرب" «اغترَبَ الرّجل: نَكح فی الغرائب وتزوّج إلى غير أقاربه، وفی الحديث: اغتربوا لا تضووا أی لا يتزوّج الرّجل القرابة القريبةَ فيجیء ولده ضاوياً أی ضعيفاً دقيق العظم هزيلاً، والاغتراب افتعالٌ من الغربة؛ أرادَ تزوّجوا إلى الغرائب من النساء غير الأقارب، فإنّه أنجب للأولاد..» (ابن منظور، مادة غرب) وقد عرفت الموسوعة الفلسفية الاغترابَ اصطلاحياً بأنه «عدم التوافق بين الماهية والوجود، فالاغتراب نقص وتشويه عن الوضع الصحيح.» (زيادة، ١٩٨٦م: ٣٩) بينما يجعل التعريف النفسی لمفهوم الاغتراب أساساً واقعياً ملموساً نعرف من خلاله الأسباب الحقيقية التی تؤدی الى هذا السلوک فيوصف بأنه «انفصال الإنسان عن القيم السائدة لعدم امتلاكه زمام ذاته، فهو حالة من الشعور بالضعف وسيطرة الآخرين عليه ، مما يؤدّی إلى صراع الإنسان مع نفسه من أجل تجاوز أخطائه وإسقاطاته.» (جواد، ٢٠٠٦م: ٦)

ردود الأفعال تجاه الاغتراب

يُـرَدُّ فعل المغترب إلى أربعة أنماط هی: ١) المجاراة لكلّ من الأهداف الثقافية وهی التی اعتبرها "فروم" إحدی ميكانزمات عملية للتكيّف والانسجام وفقاً لآراء الآخرين، ٢) الابتكار والتجديد أی المجاراة مع الأهداف المحدّدة ثقافيةً مع الخروج عن الوسائل، ٣) رفض الأهداف والوسائل والبحث عن أخرى بديلة لها، ٤) الانسحابية وهو هجر المنسحِب الأهدافَ الثقافيةَ لبلوغ هذه الأهداف، فيُعدُّ المنسحب رافضاً للأهداف الثقافية. (عبدالله، ٢٠٠٥م: ٢٣٧) وخلاصة القول إنّ النتائج السلوكية التی يسفر عنها الاغتراب هی «الانسحاب أو العزلة، الخضوع أو الاستسلام، و أخيراً الثورة أو التمرّد فی سبيل تغيير الواقع.» (بركات، ٢٠٠٦: ٥٩) توصّل علماء الاجتماع إلى وجود علاقةٍ إيجابيةٍ بين الشعور بالاغتراب والعنف، ويرون بأنّ الاغتراب ليس نتيجةً فحسب بل هو نتيجةٌ وسببٌ فی آنٍ واحدٍ، ويُبنى على ذلک أن تكون «الشخصيّةُ الاغترابيّةُ شخصيّةً

قمعيّةً والشخصيّةُ القمعيّةُ شخصيّةً اغترابيّةً فی الآنِ الواحدِ.» (خليفة، ٢٠٠٣م: ١٥١)

أنماط الاغتراب فی شعر "علی فودة"

وبعد هذا التقديم سنحاول الكشف عن الاغتراب فی ديوان الشاعر"علی فودة" والتعرّف علی أنواعها التی وَردَت قصائده اعتماداً علی نماذج شعرية منه لترسيم صورة شعرية واضحة شاملة من اغترابه وردود فعله تجاهه.

الاغتراب الاجتماعی

هذا الاغتراب هو الشعور بعدم التفاؤل بين الذات وذوات الآخرين ونقص المودة والألفة معهم وندرة التعاطف والمشاركة وضعف أواصر المحبة الاجتماعية مع الآخرين (أبودلال، ٢٠٠٩ م: ١٧ و عبّاس، ٢٠١٦م: ٣٦) وبما أنّ العزلة والشعور بالاغتراب يعدّانِ من العوامل المسؤولة عن تحقّق الهويّة «فالإنسان لا يستطيع تحقيق هويّته إلّا فی وسط اجتماعی يتحقّق فيه التفاؤل بين الذات وغيرها من الذوات، وأنّه لا يدرک هويّته إلّا من خلال المسؤولية التی يستشعرها تجاه الآخرين.» (خليفة، ٢٠٠٣م: ٦٦) والاغتراب عن المجتمع يعنی باختصار «شعور الفرد بالانفصال عن جانب أو أكثر من جوانب المجتمع كالانقطاع عن الآخرين أو عن القيم والأعراف والعادات السائدة فی المجتمع، إضافةً إلی ما يصحب ذلک من إحساس بالألم أو الحسرة أو التشاؤم واليأس وما يرافقه أحياناً من سخط أو تمرّد أو نقمة أو ثورة.» (سلامی، ٢٠٠٠م: ١٥١)

فی مجال بروز هذا الاغتراب فی شعر "علی فودة" علينا أن نقول إنّه كان يری نفسه مُستكرَهاً عند النّاس فهُم لا يقبلون آراءه النّافذة ولا يساندونه فی أعماله، فبقی وحيداً مُستغرَباً عن النّاس وسُنَنَهم وعاداتهم حيث يقول فی تجسيد هذه الحالة: «حديقةُ وردٍ أنا/ شَتلُها النّجمُ والشّهب/ ودواليةٌ ثديُها عسل/ وسنبلةٌ قَمحُها ذَهَب/ أنا الشَّعب والأرض والثّمر/ ونسرٌ أنا/ أنَفَه العربُ.» (فودة، ٢٠٠٣م: ٣٦) فكما نری أنّ الشاعر يشير إلی أنّه عنصرٌ نافعٌ للمجتمع حيث يشبِّه نفسَه بالحديقةِ والدّالية والسُّنبلة والأرضِ والثَّمَر والنَّسرِ، وكُلُّ هذه الظواهر ترمزُ إلی النّضارةِ والطراوة والقدرةِ والطموحِ، فيهدفُ

شـــاعرُنا إثباتَ هذه الصفات لنفســـه عبر استخدام هذه التشـــبيهات الرائعة، ولكن فی التفعيلة الأخيرة يكشُـــف عـــن رأی آخر للنّاسِ، وبعد تكراره لفـــظ "أنا" وتأكيده علی قدرتـــه بـــين النّاس يأتی بعبارة "أنَفَـــه العرب" لبيان ما يجری فی البـــلاد من الظلم إزاء الأحرار والمنوّرين الأفكار؛ فعندئذٍ ينقطع عن الآخرين ويحسّ بالألم الشديد بسبب ما تعرّضهم من الغفلة والنسيان، فيشعر بالتشاؤم واليأس من إيقاظهم لأجل المقاومة أمام الأعداء والوصل إلی الحرية فتكون تلک الحرية ســـبب اغترابه المباشـــر عن المجتمع. وبما «أنّ مفهومی الاغتراب عن الذات والاغتراب عن المجتمع المعاصر يتشابكان وأنّ الإنسان المغترب عن الآخرين هو المغترب عن ذاته.» (حماد، ۲۰۰۵ م: ۲۱۱) فإنّ علی فودة قد فقَدَ ذاتَه الأصيلة فبالتالی هو مغتربٌ عن ذاته أيضاً.

وفی قصيدة "فلسطين أمّی" يشير إلی اغترابه فی وطنه حيث يسخر مواطنوه منه، ولا يعرفونه إذ يتحدّث الشـــاعر عن قضايا جديدة لا يعرفها النّاس، ولذلک يستهزؤون به، فهو يصوّر هذا المشهد هكذا: «غريب الدّار/ وحدّق ثمّ حدّق شامتاً فيّا/ وقهقه ساخراً ومضی بوجهٍ كان ليليّا/ لأنّی هائمٌ واحســـرتاه/ أنا غريب الدّار.» (فودة، ۲۰۰۳م: ۸۹) فهذه اللغة السهلة اليومية تكشف مشاعر الرفض لبعض السلوكيات التی يستهجنها هذا الشـــاعر من مجتمعه، وأيضاً من بين مظاهـــر الاغتراب الاجتماعی فی هذه العبارات ما يبدو من إظهار الشعور الحاد بـ"الوحدة" الذی يصل لدي علی فودة إلی الإشفاق علي نفســـه ومواساتها، فضلاً عن إدراكه صعوبة مهمة التغيير التی كان يسعي لتحقيقها، وعند ذلک يبدو وحيداً حزيناً مغترباً، فعزيزٌ علی الشاعر الذی حصَلَ علی الوعی السياسی والاجتماعی العميق، وعاد إلی الوطنِ حتّی يُنجّی المواطنين مِنجور الأعداء ولكنّه يری النّاس لا يقدرون حقّ قدره فعو ينقطع عنهم ويشـــعر بالاغتراب عن هذا المجتمع. هذا الاغتراب عند علی فودة يعود إلی أنّ النّاس نســـوا القيمَ التی كان يجتهد شـــاعرُنا أن يحييها مرّة أخری، فأكّد علی هذا المقصود عبر استخدام "ردّ العجز علی الصدر" بتكرار "غريب الدار" فی بداية كلامه ونهايته، فبعمله هذا قرّرَ هذا المعنی فی أذهان القارئين.

ربّمـــا أجمل ما قال "علی فودة"حول اغترابه فی المجتمـــع هی الأبيات التی جاء بها فی بداية قصيدة "عن البســـطاء والثورة" مُخاطِباً أمّه: «كنتُ يا أمّاه أبكی خلف أســـوار

المدينــة/ بعدما كلّت يداى/ من طَرق أبواب المدينة/ كان كلّ النّاس يا أمّى نيام/ وأنا كالطائر المذبوح للأسف أبكى/ خلف أســوار المدينة/ كنتُ كاللاشىء مرميّاً، فداسونى بأغلى الأحذية.» (نفس المصدر: ٩٦) يتحدّث الشــاعرُ عن إعراض النّاس عنه ويشبّه نفسَــه إمّا بـ"الطائر المذبوح" وإمّا بـ"اللاشىء" وكلاهما يدلّان على الفقدان والسلب. وفى عبــارة "كان كلّ النّاس يا أمّى نيام" يشــير إلى مــا بينه وبين النّاس من التضاد فى مجال الاهتمام بالقيم الاجتماعية الجديرة بالشعب الفلسطينى، فعندما يرى نفسه ملتزماً بهذه القيم المنســيّة يغترب عن النّاس ويســمّيهم "النيام". وبسبب اغترابه الاجتماعى يصوّر نقائص المجتمع ومثالبه ويكشــف عن العيوب والآثام، ويعارض أنماط السلوك الاجتماعى المنتشــر بين النّاس ولا يجد نفسَه راضياً كلّ الرضا أو متوائماً مع المجتمع. فأضحي محكوماً باللامعنى يواجه فراغاً هائلاً، نتيجة لعدم توفر أهداف اجتماعية تعطى معنى لحياته، وتحدد اتجاهاته وتستقطب نشاطاته.

كذلك يصوّر طردَه من قبل الآخرين، ويشــكو إلــى أمّه فى قصيدة "النّاس": «حين طرقــتُ البابَ الأوّل/ أوصــد فى وجهى الباب/ فعدتُ وحيداً عدتُ شــريداً/ فحلفت بعينيک بــأنّى ما كنتُ بيومٍ رعديدا/ لكن الحظّ العاثر أشــقانى/ يا أمّى فطرقتُ الباب الثّانى والباب الثّالث/ صفقوا فى وجهى الأبواب/ خنقوا فى صدرى الإحساس/ عذّبنى يــا أمّى عذّبنى النّاس.» (نفس المصدر: ١٤٠) إذا أمعنّا فى هذه العبارات نرى أنَّ كثيراً مِــن الألفاظ والعبــارات بما فيها من الدالالة على التوحّــد والحزن تدلُّ على اغتراب الشّاعِر فى المجتمع مثل "أوصَدَ البابَ"، "وحيداً"، "شريداً"، "أشقانى"، "صفقوا الأبواب" وأيضاً "عذَّبَنى". كذَلک إنّ الّذى سـّبب اغتراب الشــاعر عــن المجتمع هو التضاد بين القول والفعل عند النّاس الذين كانوا يشتاقون إلى ما كان ينشر على فودة فى المجلات حول آرائه الاجتماعية، ولكن عندما رجع هذا الشــاعر المصلح إلى بلده تركوه وحده ولم يصاحبوه، فلذلک شــعر بالألم الشديد فى قلبه بسبب غفلة النّاس واغترب عن هذا المجتمع الغافل. وجرّاء هذه الأزمات النفســية والاضطرابات الفكرية اتّسعت المسافة بينه وبين الجماعة ولم تســتطيع وســائل الحضارة والمدنية أن تحدث توافقاً أو انسجاماً بــين الفرد وجماعته، وما كانت بإمكانه إزالة القلق والتوتّر، فبقى فى حالة عزلة وضعفٍ

وضيقٍ. وهو استخدم تقنية "الحوار" ليجلب انتباه القارئ ويحثّه على التعمّق فی كلامه؛ لأنّ الحوار «يبيّن ما فی نفس الشاعر من الأحاسيس المفرحة أو المؤلمة وأيضاً الأزمات الاجتماعية والنفسية التی يعانی منها الشاعر.» (سليمانی، ١٣٨٣ش: ٣٦٥)

الاغتراب السياسی

يعدُّ الاغتراب السياسی نوعاً كثير الشيوع بين أنواع الاغتراب فی المجتمع المعاصر، وفی المجتمعات العربية بوجهٍ خاص، يعرّف البعضُ الاغترابَ السياسی بأنه «حالة من الشعور بعدم الرضا وخيبة الأمل والانفصال عن القادة السياسيين والسياسات الحكومية والنظام السياسی، ويري أن مشاعر الاغتراب تضمّ علي الأقلّ خمسة مكوّنات وهی الشعور بالعجز، الاستياء، عدم الثقة، الغربة واليأس.» (عبدالوهاب، ٢٠٠٠ م: ١١٤) ومن منظر آخر الاغتراب السياسی هی حالة يشعر فيها الإنسان بعجزه عن المشاركة فی الأمور السياسية وانشغاله عن كلّ التطورات السياسية علي الصعيدين الداخلی والخارجی جراء السياسات التعسفية التی تفرضها السلطات على معارضيها فی الحكم (الرواشدة، ٢٠١١م: ٢٦٧)، وبما أنّ الشعراء لهم رسالة أمام شعبهم ومصير بلادهم فنری فی أشعارهم مظاهرَ هذا القسم كثيراً جدّاً. فالاغتراب السياسی عند الشعراء «هو إحساس الشاعر الملتزم بالغربة عن حكومته وعن النظام السياسی، واعتقاده بأن السياسة والحكومة يسيّرها آخرون لحساب آخرين، وهو يشعر فی هذه الحالة بأن المجتمع والسلطة لا يعنيهما أمره وبأنّه لا قيمة له فی ذلک المجتمع، فهو لا يميل إلى المشاركة السياسية، لأن مشاعر اللاقوة السياسية تشكّل حواجز نفسية تمنعهم من المشاركة فی الأنشطة السياسية.» (عبدالوهاب، ٢٠٠٢م: ١٣)

إنّ الشعور بالاغتراب السياسی لدی "علی فودة" متجذّر فی وعيه الفكری والسياسی الذی كان لايستطيع أن يتحمّل أی نوع مِن الظلم والجور ولكن أنّی تلفّتَ وجد القهر والاستغلال، ووجدَ أنّه لا عَزمَ لأبناء وطنه إلّا المتعة واللّذّة. يتمثّل هذا الاغتراب فی شعره عندما يشير إلى البون الشاسع بينه وبين الآخرين بسبب غفلتهم عمّا يدور حولهم من النّهب والدّمار حيث يقول: «فی المقهی/ يختلط الحابل بالنابل.. تختلط الأصوات/

يختلط الأحياء مع الأموات/ ها هم صحبي في المقهى/ ها هم يلتفّون على طاولة الزهر/ وفي خاطرهم بعض الحسناوات/"شـاياً"/ حيفا تأكل شفتيها النيران/"يانسوناً"/ الجوع يغني في الهند وفي الباكسـتان/"كولا بالثّلج"/ أنغولا دم يطلب ثأراً من جند الأمريكان/ شاياً.. يانسـوناً.. كولا بالثّلج/ وأنت؟/ أنا؟ هات النّار مع الصودا هات/ يشتعل العالم مـن حول الصحب/ وهم يلهون.. يلوكون القات.» (فودة، ٢٠٠٣ م: ٣٦٢) فالشـاعر لم يهتمّ بالقضايا السياسـية لفلسطين وأزماتها فحسـب بل كان يعاني ممّا يحلُّ على البلاد الأخرى كالهندِ والباكسـتان فيشكو ممّا سيطَرَ عليها من الغفلة والنسيان والذلّة؛ إذ أبعَدَ العدوُّ النّاسَ وأشـغَلَهم عن التزامهم بالقضايا الاجتماعيـة والثقافية؛ ومن مظاهر هذا الاغتراب في شـعره هو القلق والشكّ والخوف من المسـتقبل؛ لأنّ النّاس لا يشاركون في القضايا السياسـية ولا يهمّهم مصيرُ البلاد وما يجرى فيه من الظلم والاستبداد، فهذا الأمر أيضاً جعلَه الانقطاع عنهم في الأمور السياسية. فهو يبيّن أهدافه العالية التي يريد تحقّقها وحيداً دون أن يشاركه أبناء شعبه الغافلين حيث يقول: «غداً يفهم النّاس لحنى/ وكيف تنام الذئاب بحضن الرضاع/ وكيف يهيم أناسٌ بسـمّ الأفاعي/ غداً يفهم النّاس في هيئة الأمم/بأنّي عنيدٌ أغنّي أساطير جرحى بلا وهن/ وأخلق ألف نشيد من العَدَمِ.» (نفس المصدر: ٦٣ – ٦٤)، يعاني على فودة في هذه التفعيلات من عدم مشـاركة النّاس معـه في محاربة الأعداء المحتلّين وعدم اهتمامهـم بما يجرى في وطنهم من الجور والظلم، فيرى نفسـه وحيداً في تحقيق أهدافه الثورية ولكنّه لميستسـلم أمام اليأسِ والخيبَةِ بل عزم أن يثورَ على أسباب الظلمِ ويهدّمَها وإن لم يُساعِده أحدٌ. كذلك سخط من الساسة الخونة الذين دمّروا فلسطينَ فشبّههم بالذئاب حتّى يشير إلى مظالمهم العديدة، ويعكس في هذه النماذج كلّها مدى ضيقه بالواقع السياسـي والشـوق للوطنِ؛ لأنّه محبّ صادقٌ فهو يكره كلّ الخائنين. فنسـتطيع الإشـاره إلى أنّه وصل إلى العزلة الاجتماعية كحالة تتعرّض لها الإنسان المغترب سياسياً و«تتمثّل هذه الحالة في التمرّد والثورة.» (الفارس، ٢٠٠٤م: ٥)

في هذه التفعيلات اسـتخدم "على فودة" الاستعارات المتناسبة مع أحوال الأعداء، حتّى يشـير إلى جنايات الأعداء ومدى ظلمهم. بما أنّ بعـض النقّاد يرون «عندما يمرّ

الإنســان بأوضاع يفقد فيها نفسه ويصبح غريباً أمام نشاطه وأعماله هناک فی ذلک ما قد يدفعه إلى الثورة کی يستعيد کيانه، فإذن يصير الاغتراب دافعاً من دوافع الثورات.» (خليفة، ٢٠٠٣م: ٣٠) عندما يرى "فودة" رجال السياسةِ لا يهتمّون به ولا يشارکون معه فی تحقيق أهدافه الإصلاحية، فيعزم على هدمِ سياسات العدوِّ والدفاع عن وطنه المحتلّ، وذلک بســبب أحزانِه وقلقه جراء السياســات التی حملَتها البلدان المعادية وأحکامها القاسية على فلسطين فلذلک يلزمُ شاعرُنا نفسَه لرفع الأزمات، ولکن عندما يرى نفسه وحيداً فی هذا الأمر يشــعر بالاغتراب السياســی وهذا الاغــتراب لا يوحی بانفصال على فودة عن جماعته إلّا عن طريق الرفض للتصرّفات وانعدام شــعوره بمغزى التوافق مع الحياة الّتی يرفضها، من ثمّ يشــعر بشیءٍ من العجز فی المواءمة والمصالحة بين إرادته وإرادة جماعته،وهو شــعورٌ بالانفصال الرافض للســلوک غير المقبول إذا کان موضوع الاغتراب القضايا السياسية ورجال السياسة.

الاغتراب النفسی

الاغتراب النفســی مفهومٌ عامٌ وشاملٌ يشــير إلى الحالات التی تتعرّض فيها وحدة الإنسان الشخصية للانشطار أو للضعف والانهيار بتأثير الأعمال الثقافية التی تتمّ داخل المجتمع ممّا يعنی أنّ الاغتراب يشــير إلى النموّ المشــوّه للشخصية الإنسانية حيث يفقد فيه الإنســان مقوّمات الإحســاس المتکامل بالوجود والديمومة. (خليفة، ٢٠٠٣: ٨١) وفی تعريف آخر هو «شــعور الفرد بالانفصال عن الآخرين أو عن الذات أو کليهما.» (نعيسة، ٢٠١٢٩ م: ١٢٠) يتحدّد مفهوم الاغتراب فی الشخصية بالجوانب المختلفة مثل حالات عدم التکيّف التی تعانيها الشــخصية، من عدم الثقة بالنفس، والمخاوف المرضية والقلق والإرهاب الاجتماعی، غياب الإحســاس بالتمــاسک والتکامل الداخلی فی الشــخصية، ضعف أحاسيس الشــعور بالهوية والانتماء والشــعور بالقيمة والإحساس بالأمن.» (وطفة، ١٩٩٨ م: ٢٤١ – ٢٤٢) إنّ "علی فودة" يشير فی ديوانه إلى أنّ الدنيا فانيــة والنّاس هائمون فيهــا دون أن يعرفوا أهدافهم قائلاً: «هــا هنا أدفع من عمری الضريبــة/ ما حياتی دون أن أدری طريقی» (فــودة، ٢٠٠٣ م: ٩٧) ففی هذه العبارات

يظهر هذا الشـاعرُ اغترابَه النفسى الذى يتمثّل فى انفصاله عن العالم بتمامه وحتّى عن نفسه أيضاً، وهذا يدلّ على أنّه لم يدرک مفهوم الحياة وغايتها، فاضطربت نفسه وذبذبت أحاسيسُـه؛ إذ كان لا يعـرفُ مصيره فى الحيـاةِ والطرق المؤدّية إلى فهـم حقيقة العالم وأسـرارِه فكأنّه لا يعرف هويته ويفقد ثقته بنفسـه. وأصاب بـ"اللامعنى" الذى «يقصد به نقص الإدراک والفهم لكل المعانى المرتبطة بأوجه الحياة، وعدم قدرة الفرد علي فهم الأشـياء وتفسـيرها لدرجة تجعله غير قادر علي إعطاء معنى حقيقى لسلوكاته، وعدم الاهتمام بالنتائج يفقده الرغبة فى الإقدام علي الحياة، ويسـلبه إرادة الفعل وتضطرب لديه هوية وجوده.» (عبدالسـميع، ٢٠٠٧م: ٤٧) ويحسّ بأن الأحداث والوقائع المحيطة بـه قد فقـدت دلالتها ومعقوليتها، فيصـوّر على فودة هذه الحالةَ هكـذا: «كجثّةٍ طافيةٍ فى المـاء/ كشـهوةٍ غريبة الألوان والسـماء/ وُجِدتُ فـوق الأرض لا أعرف من أنا/ وُجِدتُ مثل نغمةٍ نشـاز/ أتيتُ لا أدرى.. من الألزاس واللورين أم من هجرة القوقاز/ أتيـتُ.. من أين أتيت؟! مضيت.. لا أدرى إلى أين مضيت.» (نفس المصدر: ١٦١) وهذه العبارات مع ما فيها مِن التشـبيهات الرائعة تمثيلٌ جيِّدٌ لاغتراب الشاعر عن خلجاناتِه الروحيّة والثنائيات التى يرى بين عالمه النفسـى والعالم الواقعى حوله، فابتعد عن نفسِه شـديداً فأصاب على فودة بأزمة الهوية حيـث لايعرفُ حقيقةَ ذاتِه ومبدأها ومقصَدَها، ثمّ يشـعر بالقلق وفقدان الأمـن فى هذا العالم وأهله الخونة. كـذلک أصاب بالإحباط جرّاء اغترابه النفسـى الذى «يرتبط بالشـعور بخيبة الأمل والخسارة والفشل والتأخر والشعور بالعجز التام واستحالة تحقيق مستوي الطموح والشعور بالقهر وتحقيق الذات.» (عبّاس، ٢٠١٦م: ٤١) فعلى هذا الأسـاس يمكننا القول بأنّ هذا القسـم من الاغتراب فى ذروة أقسام الاغتراب؛ لأنّه عندما لا يعرفُ الإنسانُ نفسَه فإنَّه لا يستطيعُ أن يدرک مفهـوم الاجتماع والعلاقات الاجتماعية والسياسـية. وفيما يتعلّق بناحية الأداء الفنى إنّ اسـتخدام الألفاظ والعبارات "لا أعرف من أنا"، "لا أدرى"، "من أين أتيتُ" و"إلى أين مضيتُ" يدلّ على هذا الاغتراب عند الشاعر، ويؤكّد على التوازن بين أسلوبه وبين خلجاناته النفسية. والأسئلة المتكرّرة المشتملة على حيرة الشاعر تجاه مصيره فى الحياة تؤثّر على القارئ لإدراک الاغتراب النفسى عند هذا الشاعر.

نعـم، كان الاغتراب يُضجرُ "على فودة" ويجعله يتعب من الحياة ويكره نفسـه، وما يـدلّ على هذه الحالة الروحية عند شـاعرنا هـو الأبيات التى يُذعـن فيها بأنّه ليس للحيـاة فائدةٌ، والعيش فى هـذه الدنيا عبثٌ جدّاً إذ ليس للإنسـان أىّ حظٍّ من العالم؛ فلذلك يشـعر بالاغتراب فيه؛ فينشـد فى هذا المعنى: «زائفةٌ حياتُنا البلهاءُ يا حبيبتى/ عقيمـةٌ حياتُنا لا تنجب الرّخاء/ مضحكـة أنت، أيا حبيبتى/ لأنّنا نعيش ههنا/ فى عالم ليـس لنا/ ليـس لنا/ ليس لنا.» (نفس المصـدر: ١٦٢) فإذا دقّقنـا فى الدلالة المعنوية لكلمتى "زائفة" و"عقيمة" نطّلع على ما فيها من المعانى السلبية ودلالتهما على الانقطاع عـن الخير. كـذلك إنّ تكرار عبارة "ليس لنا" يدلّ على اغتراب الشـاعر عن نفسـه وإذعانـه بـأنّ العالم لا يتعلّق به فهو لا يعرف إلى أين يمضـى، ومن خلال هذه الألفاظ يعبّر عن فلسـفته فى الحياة، وهذا الإحساس عند على فودة يقارب إحساس المتصوفة وإدراكهـم، فالاغـتراب فيه نزوعٌ صوفى وعود إلى الله، وهو يدرك أسـرار الوجود فى منحاه الاغترابى، فانفصل عن العالم وفقَدَ ما فيه من الصلات المعنوية للإنسان بينه وبين نفسه، فسُلبَ عنه الأمنُ والقرارُ واستولى عليه الخوفُ المرضى والاغتراب الذى يتمثّل فى غياب الإحسـاس بالتكامل الداخلى فى الشـخصية. فى موضع آخر يبيّن على فودة انفراده وذلّته فى الدنيا قائلاً: «وحيداً أسـير.. وحيداً وحيداً/ فعند احتباس الغيوم/ أمدّ يدى للنجوم/ لأقطف واحـدةً.. فتعود يدى خاوية/ وعند انهمار المطر/ أحسُّ الخطر/ فأقبع فى الزاوية/ ولكننى حين ينطفئ النّور ليلاً.. أسـير/ وحيداً أسير أسير/ وبين يدىّ دمى، ودموعى/ وقلبى الكسير!/ ذليلاً وقفتُ بعزّ الظهيرة/ ذليلاً وقفتُ وفى القلب حيرة/ ذليلاً وقفتُ وفى القلب حسـرة/ وقفتُ وقلبى يدقّ، يدقّ، يدقّ» (فودة، ٢٠٠٣ م: ٤٠٦) فيريد الشـاعر أن يقطف نجمةً وهى رمزُ النّور والهدايـة ولكنّه يصابُ بالخيبة واليأس ويبقـى فى الظلام تحت الأمطار وهى ترمزُ إلـى الخطرات والأزمات، وإنّ انطفاء النّور يرمز إلى عدم وصوله إلى المقصود حيث يشير فى العبارات التالية إلى وحدته وحيرته وهزيمته النفسـية كما يتحدّث عن حسـرته وعدم جرأته النفسية وكلُّ هذه الحالات لا نراها إلّا فيمن يغتربُ عن نفسه، ولا يعرفُ مسيرَتَه فى الحياة.

تتضمّن الأسـباب الخارجية للاغتراب النفسى عند على فودة فى التيارات الفكرية

العالمية، والاستعمار وأثره فى أوضاع فلسطين سياسياً واجتماعياً وثقافياً كما «تُعدّ هذه الأوضاع من أهمّ المؤثرات التى تؤدّى إلى الاغتراب النفسى فى الإنسان.» (عبّاس، ٢٠١٦م: ٤١ – ٤٢) يعود هذا الاغتراب إلى العلاقة المتوتّرة التى تربط الفرد بمجتمعه والتى تجعله يفقد توازنه النفسى وعلّة وجوده وجوهره، وبذلک يدخل عالم الاغتراب الذى يشلّ مقدرته على الفعل والتحكم فى مجرى حياته ويؤدّى إلى الانفصال عن الآخرين والتخلّى عن الحياة الاجتماعية كآخر مرحلة له، وهذا يوحى بأنّ «أغلب المغتربين نفسيّاً كانوا مغتربين اجتماعياً، بمعنى أنّ اغترابهم كان فى جانب كبير منه أثرٌ من آثار نبذ المجتمع أو تجاهله أو مطاردته لهم، ومن ثمّ أصبحوا غرباء عن الآخرين.» (بوعلامات، ٢٠١١م: ٤٥) وهذا الاغتراب فى شعر على فودة تمثّل فى حالات عديدة مثل الفناء النفسى والإحساس بالدونية والعدم والتبرّم والعزلة؛ ذلک لأنّ الحياة فى اعتقاده صارت لا معنى لها ولا قيمة تُرجى منها. من ثمّ تتعقّد أساليب الحياة وتشيع مظاهر الاختلال النفسى وتصبح الحياة دون فائدة والسعى فيها لا ينتهى لغاية محدّدة أو لهدفٍ معيّن. ونتيجة لسيطرة المادة تحدث الأزمات النفسية والاضطرابات الفكرية وتتّسع مسافة البعد بين الفرد والجماعة، ولا تستطيع وسائل الحضارة والمدنية أن تحدث توافقاً أو انسجاماً بين الفرد وجماعته ولا يمكنها إزالة القلق والتوتّر فيبقى الإنسان فى حالة عزلةٍ وضعفٍ وضيقٍ.

الاغتراب الإخوانى

هناک صلة وثيقة بين الحنين إلى الأرض والحنين إلى أهلها؛ إذ «الاغتراب عن الوطن يسبّب الحنين إلى ما فيه من الأهل والأصحاب.» (الربيعى، ٢٠١٣م: ٢٥٥) وقد يكون منشأ الاغتراب هو بعد الإنسان عن أناس يعدّهم أحباباً له«فالمراد من الاغتراب الإخوانى هوأنّ الإنسان قد عاشَرَ أناساً كثيرين، وانعقدت بينه وبينهم صداقات وسيعة، إلاّ أنّه سرعان ما يفقد هذه الصداقات؛ لأنّها ليست قائمة علي الوفاء والمؤازرة فى وقت الشدّة، ولهذا فإنّه يندب حظّه العاثر.» (أشكورى، ١٤٣٦ق: ٥٥٢)

توجد فى مواضع كثيرة من ديوان "على فودة" نماذج من اغترابه بين الأصدقاء منها

قوله لهم: «لستُ من روّاد مقهاكم أنا/ فاعتقونی/ لا تلوكوا لحمی الأخضر لا/ لا تغوصوا فی جراحی وشجونی/ لستُ منكم أصدقائی/ فدعونی» (نفس المصدر: ١٣٦) وفی أفعال الأمـر والنّهی فی هذه العبارت دلالة واضحة علی وحدته بین الأصدقاء واغترابه عنهم وعنفه كـ "اعتقونی"، "دعونی"، "لاتلوكو لحمـی" و"لا تغوصوا فی جراحی"، وأیضاً فی صراحته عند بیان سخطه «لستُ من روّاد مقهاكم أنا» و«لستُ منكم أصدقائی» ویبدو أنّه یَئسَ عن الأصدقاء وعن حبّهم ومسـاندتهم لنفسـه؛ فلذلک یطلب منهم أن یبتعدوا عنـه كما یدلُّ ذلک علی مفارقةٍ فی قوله «لسـتُ منكـم أصدقائی» لما یوجد بین بدایة كلامـه ونهایته من المعنی المفارقی عندما یفصلُ نفسَـه من جماعتهـم أوّلاً، ثمّ یخاطبهم بالأصدقـاء فی نهایة كلامه. وملخّـص القول أنّ علی فودة وصـل إلی مرحلة الرفض وهـی «المرحلة التی تتعارض فیها اختیارات الأفراد مع الأحداث والتطلعات الثقافیة وهناک تناقض بینما هو واقعی وبینما هو مثالی وما یترتب علیه من صراع الأهداف.» (الرواشدة، ٢٠١١م: ٢٧٠) وفی هذه المرحلة یكون الفرد معزولا علي المستویین العاطفی والمعرفی عن رفاقه؛ إذ ینظر إلیهم باعتبارهم غرباء.

نعم، رضی شـاعرُنا بالابتعاد عـن هؤلاء الأصدقاء الذین یسـخط علیهم، ویتذكّر خداعهم إیّاه، وذلک مِن خلالِ تشییبِهِم بإخوة النبی یوسف (ع) الذین رموا بالنبی (ع) فی البئرِ، ولكنّ البئر فی هذه العبارة ترمزُ إلی الوحدةِ التی یعانی منها الشاعر، وبعد ذلک یتحدّث عن اسـتخفافِهِم بالشّاعر وغَدرِهم به ویقول متحسِّراً: «فرمانی الإخوة فی قاع البئر/ غمرونی بین زوایا النسیان/لدغونی لدغة أفعی/ قاومت التیّار، ولكن الغدر/ ظلّ كسَیل الزمن الجارف لا یَعرف معنَی الرّحمة/ فهویتُ صریعاً تحت سنابک خیل الأهل/ أردانی سهم الذلّ، فصرتُ ذلیلاً/ أردانی سهم الأهل فمتُّ قتیلاً/ آه من غدر الأحباب.» (نفس المصدر: ١٤٩) وقد التفت علی فودة إلی ما یبعث خفی الشـجن ویثیر هواجس النفسِ وأوهامَها معبّراً عن همومه ووحدته مغترباً بین أصدقائه، ولعلّ حدیثه هذا مرتبطٌ بالحدیث عن حالته النفسیة، وتبدو الكآبة مزاجاً فطریاً دون سبب واضحٍ إلّا ما یرتبط بعلاقته هو بالأصدقاء والأحباب. ففی هذه التفعیلات صوّر وحدته بینهم وما أصابَه من الآلام والمصائب بذكر قصة النبی یوسف (ع). وبما أنّ علی فودة أتی بالعبارات «فهویتُ

صريعاً تحت سنابک خيل الأهل/ أردانى سهم الذلّ، فصرتُ ذليلاً/ أردانى سهم الأهل فمتُّ قتيلاً» التى تدلّ على عجزه، والعجز هو «عدم قدرة الفرد علي ضبط وتوجيه حياته، وتعبير صريح عن فقدان القدرة علي تحقيق أهدافه، وهذا ما يجعل الفرد يتّسم بحالة من الإحباط، بسبب نقص الفاعلية لدي الفرد وعدم القدرة علي تفعيل الحياة والحضور الايجابى والفّعال فى الحياة العامة.» (عبّاس، ٢٠١٦م: ٤٣) فإنّ شاعرنا فَقدَ معنى وجوده، والقدرة علي امتلاک إرادة الفعل والسيطرة والتوجيه، بذلک تنطفئ عنده سمة الطموح والتخطيط للمستقبل.

فى موضع آخر سمّى على فودة أصحابَه "اللا أصحاب" ويقول: «وضحک الأصحاب اللا أصحاب» (نفس المصدر: ٢٠٥) وفى هذا المجال أدلى برأيه فى تصوير جور الأصحاب ومهاناتهم إيّاها، وتظهر قيمة هذه العبارة من خلال الأثر الذى تحدّثه فى المتلقّين، وتكتمل قيمتها الفنّية عندما تدفع القارئ للبحث عن المعنى الحقيقى خلال غياهب النصّ وبنياته اللغوية والمتناقضة. كذلک يشير على فودة إلى أنّ الأصدقاء لم يبقوا على وفائهم القديم وصداقتهم الماضية قائلاً: «يتنكّر لى أحبابى/ لا أتنكّر/ يتغيّر أصحابى/ لا أتغيّر» (نفس المصدر: ٢٦٠) وهذا الإنكار والنسيان يحرق قلبَ الشاعر ويشتدّ اغترابه عن الأصحاب الذين كان قد أنِسَ بهم قبل هذا، ولكنّ الآن صاروا كأنّهم أجانب عنه ويخاطبهم قائلاً «أطعمتُكم قلبى وروحى الدامية/ لكنّنى../ رجمتُ بينكم كزانية/ فحينما أتيتُ فى الصباح/ طردتنى الأشباح/ وحينما رجعتُ فى المساء. فوجدتُ بالخواء والكراهية» (نفس المصدر: ٢٩٦ – ٢٩٧) ويهجِّنُ نسيانَهم الشاعِرَ وطرده ويذكّرهم الزمن الماضى بما فيها من أعمال شاركوا فيها ويتعجّب من إعراضهم عنه فى الزمن الراهن مخاطباً لهم: «عشقنا سويّاً/ وخُضنا المعارک دوماً معاً/ ربحنا، خسرنا سويّاً/ فكيف إذن تمّ هذا الفراق؟/ أينسى الرفاق القدامى الرفاق؟!» (نفس المصدر: ٤٢١) إنّ "على فودة" يذكّر أصدقاءه بما كان بينه وبينهم من الصلات العميقة والصداقة الشديدة ولكنّهم نسوه فهذا ما يؤلمه، فهو يأتى بالاستفهام الإنكارى للدلالة على أنّهم لا يجدر بهم أن يقطعوا الصداقة بينهم، فالواقع أنّ بعض أزمات هذا الشاعر إفرازٌ لشعورٍ متنامٍ عندما يرى أصدقاءه وقد تغيّرت أحوالَهم ودارَت مع الأيّام أخلاقُهم

بینما هو ثابتٌ علی مبادئه ومسالکه لا یتحوّل عنها ومن ثمّ یشعر بالاغتراب عنهم علی نحو ما آکد فی قوله: «عرفتُکم یا أصدقاء واحداً فواحدا/ لبسُتکم کالثّوب فی الصیف وفی الشتاء/ لبستُکم یا أصدقاء/ ثمّ خلعتُکم.. وکان الحزنُ شاهداً/ والصدق شاهداً/ خلعتُکم.. لأنّ حبّکم سدی/ وبغضُکم سدی/ خلعتُکم یا أصدقاء واحداً فواحداً/ ثمّ دفنتُکُم بقاع القلب.. صار القلب مجهداً/ فسِرتُ فی الصحراء وحدی تائهاً مشّردا/ لا أحدَ یعرفنی فیکم ولا../ أعرف فیکم أحداً/ أوّاه من یبعد عن صدری المدی» (نفس المصدر: ٤٢٩)، ففی هذه العبارات نجد سخطه وعنفه کردّة فعله إزاء خیانة أصدقائه وطردهم الشّاعر، فإنّ تکرار عبارة "خلعتُکُم یا أصدقاء" وتعلیل الشاعر فی عبارتی "لأنّ حبّکم سدی/ وبغضَکم سدی" یدلّ علی إعراضه عن أصدقائه، فهو استخدم الحوار والخطاب لبیان غرضه والتأکید علی سخطه. یجدر بالإشارة أنّ علی فودة أتی بالروی الممدود وبما أنّ «الحروف الممدودة تدلّ علی أحزان الشاعر وما فی نفسه من الکآبة والیأس» (السعدنی، ١٩٨٧م: ٣٧) فهذا الأمر ساعده لبیان اغترابه. فهو وصل من الاغتراب والوحدة إلی درجة یألف الأعشاب والحیوانات ویتحدّث معهم ویشکو من ظلم الأصدقاء مخاطباً نرجسةً: «کان لی بینهم أصدقاء/ شربنا هموم التغرّب یوماً معاً/ شکونا الزنازین یوماً معاً/ وجِعنا/ بکینا/ ونمنا معاً/ وها أنا هذا الآن یا نرجسة/ نبیّاً یحوّم حول الینابیع، لا یرتوی.. ظامئاً/ ظامئاً/ ظامئاً والجرار تنادی فمی/ ما اقتربتُ/ غریباً وقفتُ أراقب أبوابکم.. کلّها موصدة/ ولا نُحتُ عند تماثیلکم/ آه فی نیّتی أن أغادر» (فودة، ٢٠٠٣م: ٣٠٩) وهذا الحوار الملیء بالحزن والحسرة هو تقنیة الشّاعر الفنّیة لبیان اغترابه بین الأصحاب والإخوان، وهو یعامل خیانتهم وینصرف عنهم ویمیل إلی الطبیعة ومظاهرها. ویؤکّد علی سوء حاله بتکرار کلمة "ظامئاً" کما استخدم ألفاظاً لبیان اغترابه وحزنه مثل "وجعنا" و"بکینا" ودراسة هذه الألفاظ یخبرنا عمّا یدور فی نفس الشاعر من الآلام والأحزان، کذلک نشاهد فی خطابه زرافةً ویقول: «یا زرافة سلبونی نصف قلبی أشاحوا وجههم عنّی/ وما ردّوا السلام» (نفس المصدر: ٣٨٤) فیبدو أنّ هذه الألفة بالأعشاب والحیوانات أحسن دلیل علی اغترابه عن الأصدقاء وخیر تقنیة لبیان اغترابه بینهم، فهو وحیدٌ جدّاً لا یجد صدیقاً یأنس به ویشکو له مِن

أحزانه؛ فلذلک أصاب بخيبة وفشل فی حنينه إلى هؤلاء الأصدقاء، ولم يدرک محبّتهم ومساعدتهم قطّ، فمن الواضح أن يحس شاعرُنا الاغترابَ بين هؤلاء الرفاق. فابتعد عن المدن ولجأ إلى الطبيعة فی خياله كما ردّ هذا الاغتراب بالإمعان فی الرمزية؛ إذ كانت "النرجسة" و"الزرافة" رَمزَی رفيقٍ شفيقٍ يساعد الشاعرَ فی تحقيق أهدافه. فالطبيعة وما فيها من النباتات والحيوانات هی بمثابة الوادی المقدّس الذی يصون النفس ويحميها من الشطط؛ ولذلک فالطبيعة مأوی لعلی فودة المغترب وإنّ أمنية هذا الشاعر الطريد هو اللجوء إليها. وعلى هذا النحو يتّضح أنّ ميل علی فودة للطبيعة يحمل شعوراً بحبّ الحرية والرفض لحياة غير مقبولة، وتكون الطبيعة رمزاً لأحواله المتغيّرة فقد تسلّل وسط الحديث عنها أحاسيسه ما بين حزن وفرحٍ ويأسٍ وأمل وانبثقت من وجدانه هواجس من الشكوی والتشاؤم والكآبة.

الاغتراب الزمانی

إنّ الاغتراب الزمانی هو اغتراب تاريخی بمعنی أنّ المغترب زمانيّاً يمكن أن يكون مغترباً عن الحاضر أو الماضی أو المستقبل أو عنها جميعاً و«يتجلّی فی عدم تقبّله وتحقيره وعدم الانتماء إليه، فهو حاضر الهزائم والانكسارات العربية المتلاحقة والعقم والتخلّف المزری.» (بركات، ٢٠٠٧م: ١٧١) يعدّ الاغتراب الزمانی من الأمور الغامضة؛ لأنّ الارتباط بين الإنسان والزمن أكثر غموضاً من الارتباط بينه وبين المكان، «فالمكان ثابتٌ نسبيّاً أمّا الزمان فمتغيّر وبالتالی فتأثيره النفسی على الإنسان أكثر غموضاً أيضاً، فالإنسان قد يشاهد شيئاً معيّناً أو يحسّ بإحدی الحواس الخمس أو بأكثر من حاسة واحدة بينما يحتاج الإحساس بالزمن إلى الحاسة الفكرية أو الذهنية.» (العبدالله، ٢٠٠٥م: ٢٨)

قد ظهر هذا النمط من الاغتراب لدي كثير من الشعراء فی الأدب العربی. فقضية الزمان، وتوالی الأيام، وانقضاء العمر، وهجوم المشيب كلّها أمور كانت ولاتزال تستأثر اهتمام الأدباء والشعراء، و«غالباً ما يتمثّل الاغتراب الزمانی فی حنين الشاعر إلى سالف الأزمان، وبالتحديد عهد الشباب والصبا والطفولة، ذلک أنّ الإنسان لا يتحمّل

مشـــاقّ الحیاة، ولا یدرک معانیها الصعبة، فتبدو له الطفولة وبراءتها جمیلة وادعة؛ فمن هــذا المنطلق یمکننا القول بأنّ کلّ واحد منّا یعانی الاغتراب الزمانی بشــوقه إلی أیام الطفولــة الحالمة. إلاّ أنّ الشــعراء تمکّنوا مــن بثّ لواعجهم وآلامهــم الزمنیة فی أبیات الشــعر وصوّروا هذا الحنین إلی الماضی أحســن تصویر.» (أشکوری، ١٤٣٦ق: ٥٤٣) قد یکون الاغتراب الزمانی بالتطلّع نحو مستقبل واعدٍ، وقد یقصر علی حبّ الماضی. لم یُسْتَثنَ "علی فودة" من هذا الأمر، بل إنّ اغترابه الزمانی یفوق اغترابَه المکانی بأضعاف مضاعفة، فهو مثلاً یتذکّر أیّام صباه ویقول: «وجدّی کان یرکب مُهرَه الأشــهب/ یَجوبُ الأرضَ والأشــجار والزّرعا/ ویبســم للثّری المجبول بالنــوار.. لا یتعب/ وعند اللیل یجمع حوله القریة/ فیســألهم عن الأمطار والموســم/ وعن مستقبل الأطفال فی القریة/ ویحکی طاعنٌ فی السنّ عن "نعسة" وعن "أدهم"/ وعن أنثی أحبّت عبدها الأسمر/ وعن "یأجــوج" عن "مأجوج" و"الأعور"/أبی قد مــات قبل ولادتی/ ویقال عنه بأنّه قد کان یعشــقنی/ وحتّی قبــل أن أولد/ ویهوی عزّتی/وأمّی یاسمینةُ/ تعشــق الطّابون والنّارا/ وتعرف کیف تجمع حزمــة الدفلی/ وتصنع من نبات البرّ زنّارا/ وتعرف کیف تطبخ مِن بقول الحقل "عکّوباً"/ وکیف تکرّم الجیران والأحباب زوّارا/ وتعرف کیف تعقص شعر طفلتهــا/ وکیف تزیّن الدّارا/ بإکلیل من اللیمون والنّرجس» (فودة، ٢٠٠٣ م: ٨-١١) وتصــوّر الماضی علی هذا النحو هو تحوّل من حیاة الصبا والذکریات إلی یأسٍ وجمودٍ وقتامــةٍ وکأنّ علی فودة یهرب من واقع مزیفٍ إلی خیالٍ رومانســی طاف بأنسِ عهد الطفولــة ورتابته وجماله الطبیعی وما کان له من شــأنٍ وأثــرٍ، فقد کان رمزاً لکلّ طیب وجمیــلٍ فی حیاتــه الماضیة وما یضمّ کلّ ذلک من حبّ ووفاء وبما یمثّله فی نظره من عالمٍ مثالی، غیر أنّ علی فودة لا یستطیع إعادة الماضی فهو یبحث عن الزمن الضائع المنصرِم ویفتّش عنه فیما یســترجعه ویرسمــه خیاله، وهی مجرّد أمنیــات، فالضیق من الحاضر رحیــلٌ للماضی والماضی یمثّل أشــیاء کثیرة فیها حیاة الهــدوء والفطرة والمثالیة والعالم الذی یهرب إلیه عالم بسیط. من ثمّ یشعر بالاغتراب فی العالم الحدیث، فهو دائم الضیق وهو المغترب عن الزمن الراهن وهو فی سفرٍ زادُهُ فیه الخیالُ.

ممّا یجلب أیضاً الانتباه فی هذه المقاطع هو الدلالات الصوتیة للقافیة حیث اســتخدم

"علـى فـودة" من القوافى السـاكنة التى «تهدف إلـى خلق الانتظـار فى نفس القارئ وتشـويقه إلى قـراءة القصيدة حتّى آخرهـا» (يوسـفى، ١٣٦٣ش: ١٠٤) وبعد ذلک اسـتفاد من القوافى الممدودة الدالّة على آلامه الشديدة واشتياقه الوافر إلى أيام صباه وبواسـطة هذه التقنيات يتذكّر ماضى فلسـطين وخواطره الجميلة آنذاک، وربّما يكون غرضُه الرئيسى من هذا الأمر هو أن يتذكّر لنفسه ذلک الفرحَ والهدوءَ الذى كان يجرى بين النّاس؛ الهدوء الذى لا يجد له أثراً فى شبابه، وهذا الفرقُ بين الماضى المليء بالفرح والهدوء وبين زمانه الرّاهن المشحون بالقلقِ والفوضى جعلَه يغتَرِب عن عصرِه، فهو يردّ هذا الاغتراب بواسطة حبّه للعودة إلى عهد الطفولة والإتيان بالخواطر المليئة بالسرور عند طفولته بين أهله.

ربّما أجمل أبيات أنشـدها حـول الزمن الماضى لبيان تحسّـره وحزنه هى التى تمثّل حالاتـه الروحية فى قصيدة "حبل المشـنقة" حيث يقول: «ذات يـوم/ كان لى وطن يا غريبة خلف الحدود/ رائعاً/ رائعاً كان/ ضاع الوطن/ غريبةُ ضاع الوطن/ ذات يوم../ كنتُ بين الرفاق وبين المناشـير والقهوة الساخنة/ بعد عام تبين لى أن أودّعهم/ عسساً يا غريبة كان/ عسـس!/ ذات يـوم../ كان لى إخوة/ كفراخ العصافير يحومون حولى/ وكنتُ أغازلهم دائماً/ من يغازلهم من بعد أن عسـكر الاحتلال على بيتنا/ ثمّ شـتّتنا/ يا غريبة من؟» (نفس المصدر: ٢٠٩)، جاء الشـاعرُ بالأفعـال الماضيةِ فى هذه المقاطع وكما أنّ الفعل الماضى يفيد ثبوتَ شـىء لشـىء، فهذه الأفعال هاهنا تدلّ على أنّه فى شوقٍ دائم ودموعٍ دائمةٍ، وكما رأينا فى هذه العبارات، يشير"على فودة" إلى الاختلاف الموجود بين الماضى والحاضر، والتناقض بين حالاته الرّوحية فى هذين العصرين ومثل هذه المتناقضات هو ما أخرجَه عن صمته فسـاقَ حديثُه فى مرارة وأسـى. وعلى ضوء ما سـبق فالنصّ يشـيع فيه أمران متخالفان يراوح بينهما؛ أمّا أوّلهما فمعاناة الغربة بما فيها من خوفٍ وضياعٍ وحزنٍ وشـوقٍ للعودةِ وثانيهما الاصطدام بالواقع المليء بحداثته وتعقيداتـه، ولكن عندما ندقّق فى العبارات للفحـص عن غرضه الحقيقى نفهم أنّه يريد أن يحقّر حالة الهدمِ والإشـغال الذى مُنيَت بها فلسطينُ، وبعبارة أخرى إنّ تحوّل السّلم والهـدوء فى الزمن الماضى إلى الهزيمة والاضطراب فى الوقت الرّاهن فى فلسـطين أدّى

إلی اغتراب الشّـاعر عن عصره الرّاهن حتّی یـری بأنّه انقطع تماماً عن الزمن الراهن وما یسوده من الأحداث والعادات فعندئذٍ لن یستطیع أن یعیش فی الزمن المثالی الذی کان یرجوه؛ ذلک لأنّ کثیراً من الأعراف والتقالید قد تغیّرت، ولفّها ضباب النسـیان؛ کأن یکون العهد السابق حافلاً بالخیرات بحسب وجهة نظره فیتذکّر ذلک الماضی بشیءٍ من الحسـرة والألم. واسـتخدم النوسـتالوجیا لبیان اغترابه عن الزمن الراهن ویتمثّل الاغتراب الزمانی فی شعوره بأنّه لا یعیش فی الزمن الجدیر به، فیتمنّی أن یکون فی عصر غیر عصره یضمن له کرامته ویحفظ له حقوقه. فعلی أساس هذه النماذج نستطیع القول بأنّ علی فودة یری الزمن ضاقاً والدهرَ صعباً ورديئاً، وأنّ ما فاتَ منه فهو أثمن ممّا یبقی وأغلی ممّا ضاعَ، فهو یفتّش عن الزمن الضائع بعد ما تغیّرت الحیاة. وملخّص القول أنّ علی فودة انتزع من الحاضر المؤلم وانفکّ منه لعالمٍ آخر مملوء بذکریات الماضی الحلوة.

الاغتراب المکانی

یلعـب المکان دوراً هاماً وحاسماً فی تکوین حیاة البشـر وترسـیخ کیانهم وتثبیت هویتهم، وبالتّالی تحدید تصرفاتهم وتوجهاتهم وهذا لکونه أشـّد التصاقاً بحیاتهم، وأکثر تغلغلاً فی کیانهم وأعمـق تجادلاً مع ذواتهم، فکما أنّ تفاعل العناصر المکانیة وتضادها یشکل بعدا جمالیا من أبعاد النص، فإنّ معایشة الإنسان للمکان وتآلفه معه أو معاداته له، یشکّل الخلفیة الارتکازیة لکلّ تصوّر أو توجّه أو تشکیل فنّی (عقاق، ۲۰۰۱م: ۲٦۷ – ۲٦۸). والاغتراب المکانی هو الانتقال من منطقة إلی أخری، مع ما یصاحب ذلک من شعور بالضیاع والبعد والوحشة ومع أنّ ثمة أنواعاً أخری من الاغتراب، فبعبارة أخری إنّ الاغتراب المکانی هو «الشـعور بذلک الحسّ الذی یحاول الإنسـان تصویره عندما ینتقـل من مکان إلی آخر لتحقیق آماله وطموحاته مصـوّراً تلک البلدان التی أقامها، وعندما یدخل تلک البلاد المغتربة یصاب بخیبة الآمال» (یداللهی وأصلانی، ۱۳۹۲ش: ۳۱۰)، کما هی الحال عند "علی فودة"حیث یصوّر حالة النّاس عند قدومه إلی الوطن، وهـو کان یهدف إلی إصلاح الوطنوتحریره والمقاومـة أمام الأعداء ولکن عندما دخل الوطن وجد نفسه وحیداً لا یهتمّ به أحدٌ ولم یکن نصیبه سوی الیأس والخیبة، وفی موضع

آخر عندما يقنط من مساعدة الآخرين إيّاه فى تحقّقها يحسّ بالاغتراب فى هذا المكان الذى كان يحنّ إليه من قبلُ، فإذن يقرّر أن يرجع قائلاً: «أواه قد جار الزمان/ فبتُّ مقصوص الجناح، مثخن الجراح، مشلول اللسان/ وكنتُ طائراً مغرّداً/ أسرح فى المدى/ لكنّنى الآن كما الشىء غريب/ لا بدّ أن أرحل عن قريب/ فربّما اليوم، وربّما غداً.. !» (نفس المصدر: ١٣٨) فكما نرى أنّ الشّاعر انهزم فى تحقيق مقاصده فى المكان الجديد وهو وطنه المحبوب الذى كان بعيداً عنه سنوات عديدة؛ فلذلک يعتبر مكاناً جديداً له إذ طُرِد عنه فى طفولته، فقد آذاه الاغتراب فى المكان الجديد وحمله على الرّحيل خاويةً يداه مِن ثمرة الأهداف والأغراض. واستعمال عبارة «فبتُّ مقصوص الجناح، مثخن الجراح، مشلول اللسان» و«لكنّنى الآن كما الشىء غريب» وقياسه مع عبارة «وكنتُ طائراً مغرّداً/ أسرح فى المدى» يدلّ خير دلالة على اغترابه وخيبته فى المكان الجديد، وهذا التطبيق يزيد كلامه شدة لإثارة أحاسيس القارئين. ألفي فيه شاعرُنا نفسه عاجزاً عن تحقيق ذاته فى مجتمع انهار جهازه القيمى وتلاشت معاييره، فأضحي محكوماً باللامعنى فواجَهَ فراغاً هائلاً. وفى قصيدة "بطاقة الحزن" يخاطب "فودة" نفسَه هكذا: «إنّ الغريب/ سيظلّ طول العمر مهموماً غريب/ حتّى يعود إلى الوطن» (نفس المصدر: ١٣٩) ومن خلال هذه العبارات تبيّن اغترابه المكانىّ. وفى موضع آخر يشكو الاغتراب وبعده عن وطنه قائلاً: «غريباً أعيشُ هنا/ فاعتَقونى/ غريباً أعيش هنا/ فاعتَقونى/ غريباً أعيش../ فهذى الدّيارُ تَحُطُّ يداً فى يَدى مَرَّةً كُلَّ عام/ وتَطرُدُنى ألفَ عام/ فأينَ الدّيار – الدّيار؟/ أهذى ديارى../ وأنتم هنا تنصبون المناحَةَ فى كلِّ دار؟/ أهذى ديارى.. وأنتم تَبيعونَنى للدِّمار؟/فها هو وطنى/ لا أسكنُ فيه» (نفس المصدر: ٢٣٩ – ٢٤٠) إنّ الشاعر يعتبر أذى النّاس وعدم اهتمامهم به خير دليل على إحساسه بالألم والاغتراب فى المكان الجديد وهو الوطن الذى عاد إليه بعد سنوات، فهو اغترب عن هذا المكان وأهله لأنّه مجتمع تفكّكت فيه كلّ القيم والمعايير الاجتماعية، وفى ظلّ هذا الجو الاغترابى، يتكثّف الحزن وتتعمّق المأساة، ليبرز التشّكى طوراً، والانعزال والنفى الذاتى أطواراً أخري، وهذه الاستفهامات الدالّة على مفهوم الإنكار تدلّ على كرهه الشديد من المكان الجديد الذى قَصَد إصلاحَه وإنقاذَ أهلِه مِن الظلم والاحتقار،

كما تشـير إلى غفلة النّاس وخضوعهم أمام الأعداء الذين أنسوهم وطنهم ومواطنيهم وأغراضهم النبيلة، وكثرة هذه التساؤلات تدلّ على نفس هذا الشاعر المتردّدة المملوءة بالشک والمتقطّعة بها الأسباب والبعيدة عنها الآمال.

فمن شـكواه أيضاً: «طـال غيابی وحنينی يومـاً ما../ حين أمدّ يـدی لـ "الزومر" ليصافحـنی/ قد لا يعرفنی/ قد يتسـاءل عن اسمی/ عن وطـنی الأوّل، أحزانی الأولی/ قد يتسـاءلعن أمّی../ قد أهتفُ يوماً.. زومر يا زومر أولا تذكرنی؟/ أو ينسـی هذا الماء الرقـراق؟» (نفـس المصدر: ۳۷۱) فمن هـذه العبارات نسـتطيع أن نتعرّف على مدى اغتراب الشـاعر عن المكان الذی كان يعشـقه قبل قدومه إليـه وإذا أتی بفعل"قد لا يعرفـنی" فكأنّه لا يصدّق أنّ وطنه لا يعرفُه حقيقةً وبعد ذلک يدهشُ كثيراً؛ لأنّ الوطن بكلّ مظاهره قد نسـاهُ فيُنكرُ الشاعرُ هذا النسـيان ويكرهه، فالاستفهامُ الإنكاری فی هـذه العبارات تـدلّ على تحيّره ممّا وقع له فی هذا المكان الجديد من الاغتراب المتمثّل فی «قد لا يعرفنی/ قد يتسـاءل عن اسمی» وهذا التشـاؤم والانعزال الذی يجسّده على فودة ما هو فی حقيقته سـوي مظهر من مظاهر الغربة ونتيجة حتمية لها باعتباره هروباً من مواجهة واقع مضطرب مرير.

لعلّ أوضح ما يدلّ على خيبة الشاعر عند قدومه إلى الوطن هی العبارات التی أتی بهـا فی قصيدة "اللوز المرّ" حيث يقول: «قبل سـنين../ أطلقـتُ عنان حصانی الجامح.. سابقت الرّيح/عبرتُ الصحراء، الوديان، الغابات الملتفّة/ خُضتُ المعركة وراء المعركة../ فخرَّ حصانی بين القصب جريحاً/ سرتُ على الثلج، تشقق قدمای.. ولكنّی أدلجتُ إليكم والشعلة فی قلبی/ لم ألتفت أبداً للخلف، ولم يهزمنی شبح الخوف/ فركضتُ../ ركضتُ../ ركضتُ إليكم، فرحی يسـبقنی/حين وصلتُ إليكم فاجـأنی ما فاجأنی/ أوّل من أطلق نـاراً، أطلقهـا بين القدمين ليسـتقبلنی/ لكن رصاصات الثـانی والثالث خرّت فی بدنی الأزرق!» (نفـس المصدر: ۳۲۲ – ۳۲۳) وكان فلسـطين فی ذاكرة علـی فودة كمدينة فاضلة وبما أنّ المراد منها هی «المدينة التی يقصد بالاجتماع فيها التعاون علي الأشياء التی تنال بها السـعادة الحقيقية فلا تكتمل السـعادة لأهل المدينة إلا إذا كانت آراؤُها فاضلـةٌ..» (عقاق، ۲۰۰۱م: ۵۵) ولكنّه تحيّر مِن طرد النّـاس إيّاه وعدم اهتمامهم به،

وهذا هو سببُ شعورِه بالاغتراب المكانى لأنّ أعمال النّاس هى التى تُثيرُ الحيرةَ بمكانٍ فى نفوسِنا أو الكراهيةَ عنه. فهو رفض هذا المكان رفضاً قاطعاً، زاعماً أنه لا يوافق طبائعه ولا ينسجم مع نفسه الزاهدة فى ملذّات الدنيا، الرافضة لتسلط الحكام وطغيانهم، لقد كان رفضه مبنياً علي اعتبارات أخلاقية التزامية، وأسس نفسية ومعطيات سياسية، ولم يقبل الضيم فاعتزل، ولم يرض الفساد فحارب، ولم يألف التملق والتزّلف فهجا المجتمع وأهله. وشبّه نفسه بالفارس المقاتل؛ إذ لا يمكن لشاعرنا أن يركب الحصان ويعبر الصحارى والوديان، بل صوّر نفسه فى عالم الخيال وبهذا العمل ازداد كلامه بهاءً وتأثيراً، كذلک مع الاستمداد من بعض التقنيات اللغوية لبيان اغترابه المكانى منها التكرار فى فعل "ركضتُ" والإتيان بالكلمات الدالّة على اليأس والفشل، وأيضاً الإشارة إلى الرصاصات التى خرّت فى بدنه كاستعارة عن مظالم النّاس فكلّ هذه التقنيات ساعَدَه لبيان اغترابه المكانى.

إنّ "على فودة" إذا شاهد الإنكار وعدم الاهتمام مِن قبل الشعب الفلسطينى، يكره عنهم ويبرز نفوره منهم إذ نسوا قضية بلدهم من جانب وتركوا الشاعر وحده فى أهدافه الإصلاحية من جانب آخر فيتضجّر منهم قائلاً: «سئمتُ يا صحاب/ سئمتُ هذه المدينة – السراب/ سئمتُ لغوها/ ولهوها/ وشمسها/ وظلّها/ سئمتُها.. سئمتُها../ هأنذا مترعة كأسى بألوان العذاب/ وليس خلفها سوى البومة والغراب» (فودة، ٢٠٠٣ م: ٣٥٩) أقرّ "على فودة" بكراهيته للمكان الجديد وما فيها من "اللغو واللهو" و"الشمس والظلّ" ويؤكّد على هذا الشعور بتكرار فعل "سئمتُ"، وفى نهاية كلامه أتى بلفظتى "البومة" و"الغراب" وبما أنّ هاتين الطائرتين ترمزان إلى الشؤم، فعلينا القول بأنّ الشاعر أقبل على الرمزية لبيان الظروف الموجودة فى هذا المكان الذى دخله راجياً تحقيقَ أهدافه وآماله؛ لأنّ «اللّجوء للرمزِ دلالة حقيقية لحياة شعراء الغربة ويعدّ إحدى الوسائل لإظهار ضعفهم.» (على، ١٩٩٥ م: ١٣٥) وكان الفرد إذا يضيق من أعباء عالمه ويضغط عليه محيطه، يمارس اللّجوء إلى عالم يصنعه علي هواه «وفى الاشتغال بهذا العالم ينشد الفرد توسيع عالمه بالإلحاح علي التفاصيل وعلي الجزئيات فى محاولة لإثارة الحوادث الموضوعية وفق علاقات يمليها العقل.» (عقاق، ٢٠٠١م: ٧٥) فبهذه الرؤية وبهذا المنطق

یغـرق علی فـودة فی حالة من الیأس واللامبالاة والبرودة اتجاه کل شـیء، ویقع تحت طائلة الاغتراب عن هذا المکان.

النتائج

تناول البحث الکشف عن أهم أنواع الاغتراب التی ظهرت فی دیوان علی فودة؛ ها هی الاغتراب الاجتماعی والسیاسـی والنفسی والإخوانی، الزمانی والمکانی؛ والسبب یعـود إلی عوامل عدیدة منها إهمال الشـعب الفلسـطینی إزاء القیـم النبلة فی بلدهم ونسـیانهم أمجادهم القدیمة، ابتعاد الشاعر عن وطنه وتشرّده منذ طفولته، الخیبة فی حبّه الشّدید لأصدقائه ووطنه وهو لا یدری أنّ أصدقاءه وأحبّاءه قد تغیّروا ولم یبق فیهم أیّ عطفٍ وحنانٍ کما کان یرجوه الشّاعر، والتناقض فی سلوک النّاس.

من مظاهر الاغتراب فی شـعر علی فودة هی الإحسـاس بالقلـق وعدم الارتیاح والشـعور بالضیاع و الإحسـاس بالیأس وبعدم الفاعلیة والأهمیة، کذلک الانسحاب والعزلـة الاجتماعیة، و أزمة الهویة عنده والشـعور بعدم الأمـن فی المجتمع، والابتعاد عن المشـارکة بالإضافة إلی احتقار الـذات ومرکزیة التحکم وتضخیم الأنا والمیل إلی العدائیة والعنف ومعاداة المجتمع والقیم السائدة.

کان علـی فودة أکثر توظیف الألفاظ التی تنمّ عن الوحدة والاغتراب والحزن لبیان اغترابـه وأیضاً لإثارة عواطـف القارئین أمام هذه الظاهرة المؤلمـة، ولجأ إلی الطبیعة وأنـس بما فیها من الحیوانات والأعشـاب والتّحاور معهـا والحنین إلی الطفولة خلال وصفه لماضی بلاده والسـعی لاستعطاف الآخرین ولا سیّما أمّه المیّتة من خلال الحوار معها.

کذلک حاول البحث اکتشاف وسائل الدفاع الشعریة أو الطرائق التی واجه الشاعر بهـا اغترابه الخاص ، وقد توزعت بین اللجوء إلی الطبیعة فی عالم الخیال، والإمعان فی الرمزیة واستحضار صور الطفولة واستدعاء الشخصیات التراثیة الدینیة، والتغنّی بأمجاد الماضی، والسعی لاستعطاف الآخرین من خلال الإسراف فی إبداء الحزن والکآبة، کما ردّ اغترابه بالتمرّد والثـورة فی أغلب الأحیان، وکان یذکّر الآخرین بأهدافه الثوروية

تجـاه الأعداء؛ إذ كان عزيـزٌ عليه أنّهم كانوا لا يهتمّون بـه وبأهدافه فى تحرير الوطن والدفـاع عنـه، وكان يتعجّب من إهمالهـم وغفلتهم عمّا يجرى فى فلسـطين من النّهب والدّمار كما يشـكو من جور رجال السياسـة؛ فهذا التمرّد كان ردّةُ فعله تجاه اغترابه السياسـى والاجتماعى، ولكن عند شـعوره بالاغتراب النفسـى والزمانى والمكانى لم يكن يخضع أمام الظروف المفروضة. وفى اغترابه الإخوانى قد يحسّ بالاغتراب والحزن والتحسّر تارةً، وقد يقابلهم بالمثل حيناً آخر، فبناءً على ما سَبقَ يمكن القول بأنّ ظاهرة الاغتراب ازدادت حدّتها وكثُر التعبير عنها فى قصائد على فودةحيث نستطيع أن نلقّب هذا الشاعر الفلسطينى بـ "الشاعر المغترب".

المصادر والمراجع

ابن‌منظور. (١٤٠٨ق). لسان العرب. تعليق: على شيرى. طـ١. بيروت: دار إحياء التراث العربى.

أبودلال، مريم سـالم. (٢٠٠٩م). الاغتراب النفسـى وعلاقته بالتوافق النفسـى الاجتماعى. رسـالة الماجستير. ليبيا أكاديمية الدراسات العليا.

أشـكورى، عدنان، (١٤٣٦ق). «ملامح الاغتراب فى شـعر أحمد الصافى النجفى». مجلة اللغة العربية وآدابها. السنة ١٠. العدد٤. صص ٥٦٣-٥٣٣.

بركات، حليم. (٢٠٠٦م). الاغتراب فى الثقافة العربية. ط١. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

بركات، عبد الرزاق. (٢٠٠٧م). الاغتراب فى الشعر التركى والعربى المعاصر. ط١. كويت: دار القلم.

بوعلامـات، أمينـة. (٢٠١١م). الاغتراب فى الشـعر الجزائرى الحديث فى الفـترة ١٩٢٥–١٩٨٠م. تلمسان: لانا.

جاسـم، عزيز السيّد. (لاتا). الاغتراب فى حياة وشعر الشريف الرضى. بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر.

جواد، نهي عباس. (٢٠٠٦م). الاغتراب فى النص المونودرامى العراقى. رسالة ماجستير مرقونة علي آلة الحاسوب. جامعة بابل: كلية الفنون الجميلة.

حافظ، أحمد خيرى. (١٩٨٠م). سيكولوجية الاغتراب لدى طلاب الجامعة. مصر: جامعة عين شمس.

حماد، حسن. (٢٠٠٥ م). الإنسان المغترب عند إريک فروم. القاهرة: مكتبة دار الكلمة.

خليفة، عبداللطيف محمّد. (٢٠٠٣م). دراسـة فى سـيكولوجية الاغتراب. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر.

خليل، ابراهيم، والآخرون. (٢٠٠٥م). مرايا التذوّق الأدبى. طـ١. بيروت: المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر.

الربیعی، أحمد حاجم. (۲۰۱۳م). الغربة والحنین فی الشعر الأندلسی. ط۱. بیروت: الدار العربیة للموسوعات.
الرواشدة، علاء زهیر. (۲۰۱۱ م). الاغتراب السیاسی لدی الشباب الجامعی. المجلة الأردنیة للعلوم الاجتماعیة. المجلد ٤. العدد۳. صص ۲۹۸-۲٦٤.
زیادة، معن. (۱۹۸٦م). الموسوعة الفلسفیة العربیة. ط۱. بیروت: معهد التاریخ العربی.
السعدنی، مصطفي، (۱۹۸۷م). البنیات الأسلوبیة فی لغة الشعر العربی الحدیث. الإسکندریة: لانا.
سلامی، سمیرة. (۲۰۰۰م). الاغتراب فی الشعر العباسی (القرن الرابع الهجری). دمشق: دار الینابیع.
سلیمانی، محسن. (۱۳۸۳ش). فن داستان نویسی. چ٤. تهران: امیرکبیر.
عبّاس، دانیال علی. (۲۰۱٦م). الاغتراب النفسی. دمشق: منشورات جامعة دمشق.
عبدالسمیع، بهجات محمّد. (۲۰۰۷م). مدي فاعلیة برنامج ارشادی لتخفیف الشعور بالاغتراب لدي المراهقین المکفوفین. ط۱. الإسکندریة: منشورات کتب الاغتراب لدي المکفوفین.
العبدالله، یحیی. (۲۰۰۵م). الاغتراب (دراسة تحلیلیة لشخصیّات الطاهر بن جلّون الروائیة). ط۱. بیروت: المؤسّسة العربیة للدراسات والنشر.
عبدالوهاب، طارق محمّد. (۲۰۰۰ م). سیکولوجیة المشارکة السیاسیة (مع دراسة فی علم النفس السیاسی فی البیئة العربیة). القاهرة: دار غریب للطباعة والنشر.
عبد الوهاب، الطراف. (۲۰۰۲ م). المشارکة السیاسیة والاغتراب السیاسی. جریدة الأحداث المغربیة.۱۱ - ۲۹ .
عقاق، قادة. (۲۰۰۱ م). دلالة المدینة فی الخطاب الشعری العربی المعاصر. دمشق: منشورات اتّحاد الکتاب العرب.
علی، علی عبدالخالق. (۱۹۹۵م). ظاهرة الاغتراب وصداها فی الشعر المعاصر بمنطقة الخلیج. مجلة مرکز الوثائق والدراسات الإنسانیة، جامعة قطر. السنة السابعة. العدد السابع. صص ۹۷ – ۱٤۸.
الفارس، مجدی. (۲۰۰٤م). الخصائص النفسیة الفارقة والمتعلقة بکثافة التعرض لبرامج التلفزیون الفضائیة لدي الشاب الجامعی معهد الدراسات والبحوث التربویة. القاهرة: جامعة القاهرة.
فودة، علی. (۲۰۰۳م). «الأعمال الشعریة.» ط۱. بیروت: المؤسسة العربیة للدراسات والنشر.
نعمتی، فاروق، وآخرون. (۱٤۳۵ق). «الاغتراب ومظاهره فی شعر سیّد قطب». الأدب العربی. السنة ٦. العدد۱. صص ۲۳۸-۲۱۷.
نعیسة، رغداء. (۲۰۱۲م). «الاغتراب النفسی وعلاقته بالأمن النفسی - دراسة میدانیة علي عینة من طلبة جامعة دمشق القاطنین بالمدینة الجامعیة». مجلة جامعة دمشق. المجلّد ۲۸. العدد۳ . صص ۱۵۸-۱۱۳.
نوری، شاکر. (۱۹۸۳م). «الاغتراب فی الفکر المارکسی». بغداد: مجلة الثقافة. العدد ٤. صص ۵۹-٤۲.

وطفة، علی. (١٩٩٨م). المظاهر الاغترابية فی الشخصية العربية. الكويت: عالم الفكر.
یاسین، طالب. (١٩٩٢م). «الاغتراب (تحليل اجتماعی ونفسی لأحوال المغتربين)». عمان: المكتبة الوطنية.
یداللهی، عبّاس وسردار أصلانی. (١٣٩٢ش). «الاغتراب فی شعر جميل صدقی الزهاوی وناصر خسرو القبادیانی». فصلية ادبيات تطبيقی جامعة شهيد باهنر كرمان. السنة ٥. العدد٩. صص ٣٢٣-٣٠١.
یوسف، محمّد. (٢٠٠٥م). الاغتراب الإبداعی لدى الفئات الإكلينيكية. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر.
یوسفی، غلامحسین. (١٣٦٣ش). كاغذ زر (يادداشتهايی در ادب و تاريخ). چاپ اوّل. تهران: يزدان.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی